الخطاب الديني وانعكاس الفكر على اللغة

أ. بن عربية محفوظ
جامعة البليدة 02

المحور: أزمة الخطاب الديني المعاصر.

لقد سنحت لي الفرصة أن تكونت بمعهد تكوين الإطارات الدينية لأتخرج برتبة إمام أستاذ أو ما يسمى بين الناس بإمام خطيب وقد عايشت في فترة التكوين أصنافا منوعة من الفكر الديني، وأنا هنا أقصد الدين الإسلامي، وقد حصلت بيننا مناقشات وسجالات غيرت بعضا من قناعاتنا كنا نظنها مسلمات، وأطلعتنا على أفكار مغايرة لأفكارنا كنا نظن أنه لا يوجد غيرها، كما عرفتنا على عقول جامدة لا تلين حتى ولو استيقنت أن حجتها داحضة. بهذه التجربة التكوينية واشتغالنا بالخطابة نستمد مداخلتنا الموسومة بـ (الخطاب الديني وانعكاس الفكر على اللغة) وتتمثل عناصرها في: مفهوم الخطاب الديني – دلالة الخطاب الديني بين العقل والنص – الحكمة من نزول القرآن الكريم حمّال أوجه –الحكمة من ظنية الدلالة في الحديث الشريف–أثر الفكر بين ضرورة الاختلاف وضرر الخلاف – تنوع الخطاب من جهة المخاطِب – تنوع الخطاب من جهة المخاطَب – استخلاص أهم أسباب أزمة الخطاب الديني – اقتراح حلول لعلاج الخطاب الديني من أزمته.

الحمد لله الذي جعل العربية لنا لسانا، وزادها شرفا وبيانا حين أنزل بحروفها الذكر قرآنا وأشهد أن لا إله إلا الله وحده له لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أحسن الناس خلقا، وأفصحهم منطقا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

المنارة للاستشارات

فقد خلق الله الخلق لعبادته وحده لا شريك له ولكي لا يكون للناس حجة بعد الرسل أرسل الله النبيئين مبشرين ومنذرين ليبصروا الناس بعد عمى ويعلموهم بعد جهل ويخرجوهم من الظلمات إلى النور، فأكمل الله الدين وأتم النعمة وهدى السبيل وبمحمد صلى الله عليه وسلم ختم رسالاته ليكون رحمة للعالمين، قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107)1 إذن فالكون كله يدور حول توحيد الله وتطبيق شريعته قال تعالى: هَـذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)2.

كما أن الدين الحق هو الدين الإسلامي الذي يتبعه المسلمون ومن تركه فقد ضل ضلالا مبينا وأعماله كسراب بقيعة يحسبه الظمئان ماء أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ولهذا نشعر بالغبطة والحظوة كوننا مسلمين تركنا نبينا صلى الله عليه وسلم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك. والله سبحانه وتعالى يقول: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)3 والإسلام دين شامل ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾4 فالإسلام حوار مستمر بين النص الديني والحياة الواقعية، أو جدل دائم بين ثابت أزلي وبين متغير متجدد.5

فلم نخجل ونحن نخاطب المسلمين وغير المسلمين بهذا الدين؟ هل الإشكال في الخطاب الديني؟ وإن كان كذلك ففيم يتمثل؟

المنارة للاستشارات

1. **مفهوم الخطاب الديني:** يجدر بنا ونحن نسعى للإجابة على هذه الإشكالية أن نمر بعدة محطات ولعل أولها محطة مفهوم الخطاب الديني؛ فنلحظ أن المصطلح ينقسم إلى (خطاب) و(دين).

الخطاب لغة: جاء في لسان العرب الخِطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، قال بعض المفسرين في قوله: وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)6 أن يحكم بالبينة أو اليمين أو أن يفصل بين الحق والباطل.7

اصطلاحا: يختلف مفهوم الخطاب حسب فضائه العام لنظرية تحليل الخطاب إلى عدة مفاهيم أبرزها كما حددها **Maingueneau**:

الخطاب بوصفه مرادفا للكلام، من منظور لسانيات الجملة.

الخطاب بوصفه وحدة فوق الجملة مرادفة للنص، من منظور لسانيات النص.

الخطاب بوصفه فعالية تلفظية ذات تمظهرات سياقية، من منظور تداولي.

الخطاب بوصفه النموذج الأرقى للمشافهة والمحادثة.8

والخطابة أنواع: دينية، وسياسية، وقضائية، واجتماعية، وعلمية، وتسمى العلمية بالمحاضرة.9

الدين: لغة: تعددت معانيه فمنها الحساب كقوله تعالى: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)10 أو القضاء كقوله تعالى: فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ

المنارة للاستشارات

الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّـهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)11 ومن معانيه: الحال، الورع، القهر، الطاعة، المعصية.12

الدين اصطلاحا: هو إيمان وعمل، إيمان بوجود قوى هي فوق طاقة البشر، لها تأثير في حياته ومقدراته، وعمل في أداء طقوس معينة تعين شكلها الأديان للتقرب إلى الآلهة واسترضائها، والإيمان هو قبل العمل بالطبع، فلا بد للقيام بالشعائر أو بأداء العمل، من وجود إيمان عند الشخص أو الأشخاص بوجود إله أو آلهة.13

مفهوم الخطاب الديني :نحصر المعنى فى مجمل التعريفات حول السعي لنشر دين الله عقيدة وشريعة وأخلاقاً، ومعاملات وبذل الوسع في ذلك، لتعليم الناس ما ينفعهم في الدارين وبذل أقصى الجهد والطاقة من اجل خدمة هذا الدين الحنيف وامتثالا لأمر الله تعالى وامر رسوله صلى الله عليه وسلم14.

2. **دلالة النص ودلالة العقل في الخطاب الديني:** قبل التطرق إلى دلالة النص ودلالة العقل في الخطاب الديني يحسن أنْ نعلم أنّ الخطاب الديني يتسع إلى دلالة أخرى وهي اختلاف العقول في فهم النصوص _ وهو ما سنعرج عليه لاحقا_ وعودا إلى دلالة النص نلحظ أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ دينه بالحفاظ على كتابه العزيز وهو القائل جل وعلا: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)15وأكد صدق رسوله عليه الصلاة والسلام بقوله: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤)16ونحن المسلمين لا نشك في صحة الوَحيين ومجال تأكيد ثبوتهما واضح ليس هذا بابه؛ إذن: فدلالة النص – وإن كان الإجماع أيضا يعد ضمن النص الشرعي– في الخطاب

المنارة للاستشارات

الديني محط قبول عند الجميع ويسَلم بما جاء في مضمونها جميع المسلمين المطيعين دون تردد ولا تمرد قال تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)17 أما دلالة العقل في الخطاب الديني فهي ذلك الفضاء الرحب الذي تركه الله لنا لنبحر فيه بسفينة الكلمات فلكل له أن يعبر عن هذا الدين بما يملك من ألفاظ وعبارات وأساليب؛ ولهذا فمن الخطإ الفادح أن نضيق واسعا وأن نجعل ما يقوله فلان هو الصواب بعينه وما يقوله غيره نضرب به عرض الحائط، من الخطإ أن نرفع أناسا لدرجة الأولياء ونصف الباقين بالأشقياء، فبعد انقطاع الوحي وانتفاء العصمة ما ينبغي لأحد أن يحجم هذا الدين وأن يقول فيه وبه على هواه. أما فيما يتعلق بدلالة العقل على النص فتبقى دائما ضمن علاقة التابع (العقل) والمتبوع (النص) لأن الله الذي أنزل النص (الوحي) هو الذي خلق العقل فلا تضارب بينهما وإنما سُبق النص على العقل لأن النص متفق على ثبوته، أما العقل فيبقى دائما في دائرة الاجتهاد مهما بلغ، يقول محمد عبده: (كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم، ويسبح به في الأرض ويصعد به إلى أطباق السماء ليقف به على أثر من آثار الله، أو يكشف به سرا من أسراره في خليقته، أو يستنبط حكما من أحكام شريعته)18

3. **الحكمة من نزول القرآن الكريم حمّال أوجه:** قبل ذكر الحكمة من نزول القرآن حمّال أوجه يجب أن نعرف أن لفظة حمّال أوجه في ذاتها حمّالة أوجه ولا نقصد بها أن القرآن يتعارض مع بعضه البعض كما هو حاصل في رد بعض العلماء، وإنما نقصد الاشتراك اللفظي حينما يحمل اللفظ أكثر من

المنارة للاستشارات

معنى، كمثل قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)19 لا يمكن أن يفصل في إعراب كلمة كافة هل هي حال عن فاعل أم حال عن مفعول. أو كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ 20 وفي قراءة: وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ 21 فبنصب أرجلكم حملت على الغسل، وبالجر حملت على المسح على الخفين في أحد الأقوال، ولهذا قال الزركشي: في (البرهان في علوم القرآن): "وقوله: ذُو وجوه، يحتمل معنيَين، أحدُهُما: أنّ من ألفاظه ما يَحتمل وجوهًا من التّأويل، والثّاني: أنّه قد جمع وجوهًا من الأوامِر والنّواهي، والترغيب والترهيب، والتّحليل والتّحريم، وقوله: فاحملوه على أحسن وجوهه، يَحتمل أيضًا وجهين، أحدهما: الحمل على أحسنِ معانيه، والثّاني: أحسن ما فيه من العزائم دون الرُّخَص، والعفو دون الانتِقام، وفيه دلالة ظاهرة على جواز الاستِنباط والاجتهاد في كتاب الله، والله أعلم"22.

وقد أنزل الله كتابه يحوي آيات محكمات وأخر متشابهات فقال سبحانه: هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)23 فالحكمة من هذا أن يترك الله للناس في القرآن سعة من الأمر في فقه أحكامه فكما خلق الله الناس

المنارة للاستشارات

مختلفين ترك الأحكام تتوحد في الأصول وتختلف في الفروع، كما أن فهم الآيات القرآنية يتأثر بالتطور العلمي، فمثلا دلالة قوله تعالى: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ (٢٢٨)24 فقد اختلف العلماء قديما في تحديد معنى (قرء) فذهب مالك والشافعي إلى أن المعنى المراد هو الطهر، وعليه تكون العدة: طهر وحيض "طهر وحيض" طهر. وذهب أبو حنيفة إلى أن المراد بالقرء هو الحيض، وعليه تكون العدة: طهر وحيض "طهر وحيض " طهر وحيض؛ فجاء العلم الحديث ليكتشف أن الرجل يسهم بمائه في خروج البييضة لمدة ثلاث حيضات، ولهذا كانت عدة المرأة المتوفى زوجها بمدة انتهاء ثلاث قروء أي ثلاث حيضات. ولهذا عندما انتقل السهروردي إلى التأويل جعل النص الديني يتسع في معناه بحسب قُرائه ودرجة معرفتهم وعمق فهمهم ، حيث جعل التأويل (صرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة، فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول: من صفاء الفهم ورتبة المعرفة)25.

الحكمة من ظنية الدلالة في الحديث الشريف: جاءت السنة النبوية شارحة للقرآن موضحة لأحكامه ومفهمة لمبهمه، ومفصلة لمجمله، ومقيدة لمطلقه، ومخصصة لمعممه، وقد حوى القرآن أصول العقيدة والعبادة والمعاملات، وجاءت السنة كاشفة ومقيمة ومطبقة، ولأن الناس خلقهم الله مختلفين جاءت السنة تراعي الجميع فنجد مثلا الرسول صلى الله عليه وسلم يأتيه الصحابي وقد عمل عملا فيقره الرسول صلى الله عليه وسلم ويأتي

المنارة للاستشارات

الصحابي الآخر يعمل عملا مخالفا للأول ولنفس الأمر فيقره الرسول صلى الله عليه وسلم والأمثلة في هذا كثيرة، نذكر منها ما وقع بين الصحابة في حديث الصلاة في بني قريظة فعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال النبي ، صلى الله عليه وسلم، يوم الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلّي لم يُرد منا ذلك فذكر ذلك للنبي ، صلى الله عليه وسلم، فلم يعنِّف واحداً منهم" 26

وكما أن العلم يكشف حقيقة القرآن، فكذلك يكشف إعجاز السنة ويبين دلالة بعض الأحاديث فمثلا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ : إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَعَمَلِهِ وَأَجَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا[27] ففهم بجمع أربعين مع أربعين مع أربعين أي أنه أربعة أشهر. ولكن اكتشف العلم الحديث أن جميع هذه الأطوار من نطفة ثم علقة ثم مضغة تكون في أربعين يوما واحدة وبهذا يكون الخطاب الديني بالحديث النبوي الشريف متوافقا مع مكتشفات العلم الحديث.

المنارة للاستشارات

4. أثر الفكر بين ضرورة الاختلاف وضرر الخلاف: اختلف المسلمون في فهم الأحكام الفقهية واتباعها حتى في زمن الصحابة فوجدنا ابن عمر رضي الله عنه يزاحم على الحجر الأسود حتى يدمى، وابن عباس رضي الله عنه يشير للحجر بيده من بعيد، وابن عمر رضي الله عنه يبتعد عن حمل الصبيان لاحتمال نجاسة ملابسهم وابن عباس رضي الله عنه يحملهم ويقول: هي رياحين نشمها؛ فبات يعرف في الفقه الإسلامي ما يسمى بشدائد ابن عمر ورخص ابن عباس، وكان الصحابة يعيشون جوا أخويا، بينما اليوم – وعلى العكس – يوجد من في خطابه الديني (يسارع بتجهيل خصومهم وتكفيرهم دون هوادة، فهذا الخطاب لا يقبل بالاختلاف على اعتبار أنه يمتلك الحقيقة الشاملة والمطلقة وبذلك يلجأ إلى لغة الحسم الفكري على أساس اعتبار أن الإيمان الديني هو (أن يعتقد المؤمن أنه على حق، وأن مخالفه على باطل، ولا مجاملة في هذه الحقيقة)28)29. وكما وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وكفار قريش حين قالوا على الحبيب المصطفى أن به جِنة (مسه جني) وهم يدركون في قرارة أنفسهم أنه هو الصادق في حديثه والأمين في رعاية أماناتهم والحكيم بأفكاره وقصة وضع الحجر الأسود شاهدة حين أشار عليهم أن يوضع الحجر الأسود في لحاف تشترك قريش في حمله ومع هذا هم يعاندون فجاء القرآن يخاطبهم بقوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّـهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) 30 فطلب الله منهم أن يجلس كل واحد منهم لواحده أو مع واحد فقط ثم يتفكروا ويتدبروا في قولهم ليكتشفوا أن كلامهم عبارة عن غوغائية كانت وسط الخطاب الجماعي ولهذا يجب على كل مخاطب أن يراجع فكره فإن وجد خطأ صوبه، وإن وجد صوابا حسنه. وأن نعترف أن الاختلاف طبيعة

المنارة للاستشارات

بين البشر قال الله جل شأنه: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)31 ومن يفكر أنه يمكنه أن يجمع الناس على كلمة واحدة إنما هو يزيد في تفرقهم، (ويجب أن يعلم الذين يريدون جمع الناس على رأي واحد، في أحكام العبادات والمعاملات ونحوها من فروع الدين، أنهم يريدون ما لا يمكن وقوعه ومحاولتهم رفع الخلاف لا تثمر إلا توسيع دائرة الخلاف، وهي محاولة تدل على سذاجة بينة، ذلك أن الاختلاف في فهم الأحكام الشرعية غير الأساسية ضرورة لابد منها. وإنما أوجب هذه الضرورة طبيعة الدين، وطبيعة اللغة، وطبيعة البشر، وطبيعة الكون والحياة).32

5. **تنوع الخطاب من جهة المخاطِب:** يحتاج المسلمون اليوم إلى تجديد خطابهم الديني وتحسينه ليتماشى مع لغة العصر وإمكانياته ولهذه نحتاج إلى تجنب بعض الأسباب من أجل تقوية الخطاب الديني:

1. الابتعاد عن التعصب لفرقته أو أصحابه فنجد هذا يقول عن هذا أنه وهابي متشدد والآخر يقول هذا صوفي متزندق، وآخر يقول هذا إخواني مسيس، وآخر هذا جهادي تكفيري.

2. قلة الزاد العلمي والمعرفي يجعل المتصدر للخطاب الديني يتولى في أول مواجهة، وقد يزيد السامع ارتكابا وإبهاما.

3. حصر الخطاب الديني على المساجد وفي القنوات الفضائية على بعض الحصص أو المناسبات.

4. تركيز الخطاب الديني على أشياء لا تشغل اهتمام المتلقي حتى روي عن بعض الخطباء أنه بعد سنة كاملة لم يخرج في دروسه من الميضأة

المنارة للاستشارات

(الطهارة). تكرار نفس الموضوعات أو استعمال أسلوب واحد في الخطابة (الترغيب، أو الترهيب، رفع الصوت، خفض الصوت، ...)

5. عدم الإطالة في الحديث حتى لا يشعر السامع بالملل، وكذلك لأن ذاكرة المتلقي محدودة الاستيعاب وفي هذا ما أُثر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: (الكلام الكثير ينسي بعضه بعضا).

تنوع الخطاب من جهة المخاطَب: تختلف عقول الناس في الاستيعاب سواء من حيث السن بين صغير وكبير أو من حيث الدرجة العلمية بين متعلم وأمي أومن حيث درجة الفهم بين سريع الفهم وبطيئه ولهذا يجب أن يراعي المخاطِبُ حالَ المخاطَب، فهذا كليم الله موسى عليه السلام يدعو ربه كي يمكنه من إفهام قومه قال الله تعالى حكاية على لسان سيدنا موسى عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة والسلام: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)[33] وعليه يجب أن يتميز الخطاب الديني بـ:

أ- البساطة: يجب أن يكون الخطاب بسيطا يمكن المتلقي من فهم معانيه فمما أثر عن السلف قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[34] وكذلك قول علي رضي الله عنه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)[35]فينبغي ألا يقتصر العرض والمخاطبة على اللغة الفقهية الرصينة التي صيغت بها المتون العلمية والتي لا يقدر على فهمها إلا طلبة العلم، بينما يصعب فهمها على كثير من الناس.[36]

المنارة للاستشارات

ب- المعاصرة: (الخطاب يراعى فيه التغيرات التي تطرأ على الحياة، وله أن يأتي بطرائق مستحدثة لم تكن معروفة من قبل37) ولا يقصد بهذا التغيير في المحتوى والمضمون وليس الطريقة أو الأسلوب، ليجاري التغيرات السريعة في واقع المجتمعات داخليا، وفي العلاقات بين الدول خارجيا، بحيث تصير قضية الخطاب الديني: هي إقرار هذا الواقع وتسويغه وتسويقه، والتجاوب معه كلما تغير. 38

ت- مراعاة العرف: (الخطاب يراعى فيه العرف، فإن أعراف تتغير من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان)39

6. **استخلاص أهم أسباب أزمة الخطاب الديني:** أزمة الخطاب الديني قدر يدفع بقدر وهذا لتأثر حال الخطاب الديني بحال الدين فعن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب، حتى لا يدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، ويبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله، فنحن نقولها. قال صلة بن زفر لحذيفة: فما تغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صيام ولا صدقة ولا نسك؟ فأعرض عنه حذيفة فرددها عليه ثلاثا، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة! تنجيهم من النار)40 وقبل هذا اليوم الذي في آخر الزمان يسخر الله لهذا الدين أمثالكم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال الله يغرس في هذا الدين بغرسٍ يستعملهم في طاعته)41. وهذه بعض الأسباب جاد بها الدكتور عصام البشير42 نلخصها كالآتي:

المنارة للاستشارات

1. التقوقع والانغلاق: ويتمثل هذا الاتجاه في النظر إلى الواقع المعاصر بعين السابقين واجترار مناقشة أفكارٍ انقرضت والاعتقاد أن الكتب القديمة قد حوت حلا لكل مستجدات عصرنا بل وما يليه من عصور إلى يوم الدين والتعامي عن هموم عصرنا وما استجدت فيه من مشاكل وما برزت فيه من تحديات وما سادت فيه من مذاهب فكرية هدامة

2. التعميم والإطلاق: ينبني على الإجمال وإطلاق المبالغات والتي – في كثير من الأحيان – يجرها الإكثار من استعمال (أفعل) التفضيل، وعبارات التعميم. فكثيرا ما نسمع عبارات معممة ليس لها من سند شرعي مثل: الكفر ملة واحدة، أو خذوا الإسلام جملة أو دعوه جملة، أو العولمة شر محض.

3. التبعية والانسياق: ويتمثل هذا الاتجاه في الدعاة إلى النظام العالمي الجديد .. لا في وسائله وتقنياته بل في أصوله ومحكماته. فلم يبقوا من الاسلام إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه، فرطوا في الأصول وضيعوا القطعيات، وأصبح معيار الصواب عندهم ما يمليه عليهم الغرب لا شرع الاسلام، يقدمون الإسلام ضعيفا منهزما، خال من دعوة للجهاد، أوتحفيز للإعداد.

4. الافتخار بالمناقب والأعراق: ويتمثل هذا الاتجاه في المتحدثين عن تاريخ الإسلامو حاضره حديث المختال .. يسردون المحامد ويعددون المناقب، ويغفلون عن النقائص والمثالب. لا يحاسبون ذواتهم ولا يقيمون تاريخهم بل يرددون قوله تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ (١١٠) 43ويفهمونها على هواهم، ولا يربطون

المنارة للاستشارات

الخيرية بقوله تعالى: وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠)44، ولا يعترفون بخطأ أو قصور.

5. التبرير والإلحاق: ويتمثل هذا الاتجاه في محاولة نقل الحضارة الغربية بخيرها وشرها إلى عالمنا الإسلامي والتماس المسوغات المنطقية والمبررات الشرعية لإلحاق مقومات الحضارة الغربية بأصول الإسلام، ومن ذلك تحليل الربا وشرب الخمر وتحريم القصاص وتعطيل الحدود ونزع الحجاب ونحو ذلك.

6. الاختصار والتجزئة: ويتمثل هذا الاتجاه في دعاة العلمانية الذين يريدون للإسلام أن يردد مقوله النصارى " دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله "، ودعاة التجزئة والاختصار، الذين يأخذون من الإسلام الأشكال والرسوم، ويستبعدون الجوهر والمضمون. يريدون الإسلام دعوة بلا دوله، عقيدة بلا شريعة، سلام بلا قتال، حق بلا قوة.

7. الرفض والعنف : ويتمثل هذا الاتجاه في محاولة بعضهم إظهار الإسلام مشتجراً مع الجميع، محارباً للمسالمين، مروعاً للأمنين، طالباً للدم، ساعياً للهدم، باحثاً عن الزلات لنشرها، طالباً للثغرات لهتكها، لا يعرف "المؤلفة قلوبهم " ولا "أهل الذمة " ولا " الكفار غير المحاربين" ونحو ذلك مما حفل به تراث الإسلام في تصنيف غير المسلمين، بل ولا يعرف المسلم العاصي أو غير الملتزم المذنب فالكل في نظره كفار، بل وربما لا يعرف المسلم الملتزم المخالف له في الرأي، الأصل في العادات عنده الحرمة حتى يرد الدليل بالتحليل، يعبد الله على حرف ولا يغضي عن المخالف الطرف. فأنى له أن يمثل الخطاب الاسلامي الحق .

المنارة للاستشارات

7. **اقتراح حلول لعلاج الخطاب الديني من أزمته:** ها نحن وقد استقر في أذهاننا بعد تشخيص أن أزمة الخطاب الديني تكمن في الفكر وما اللغة إلا انعكاس له، صار لزاما علينا أن نبحث في مراجعة الأفكار ونرفع قواعدها، ولهذا هذه جملة من المقترحات قد تسهم في حل أزمة الخطاب الديني:

1. تنظيم ملتقيات فكرية لمناقشة الأفكار الإسلامية بشروط هي:،

أ- وتكون هذه الملتقيات بين العلماء فقط وبعيدة عن أعين العوام.

ب- لا تقرأ على الإعلام نتائج الملتقايات المختلف فيها، والاقتصار فقط على المتفق عليه. أما النتائج المختلف فيها فتطبع وتعطى لطلبة العلم.

ت- إظهار الجانب الأخوي بين العلماء للإعلام ليقتدي بهم العوام.

ث- ضرورة عدم الإنقاص من الآخر؛ بكلمة أو إشارة، تلميحا أو تعريضا.

ج- مناقشة قضايا الأمة وفق فقه الأولويات، فقضية التكفير أولى من قضية التحزب.

ح- التركيز على خصائص الشريعة الإسلامية وتطبيق قواعدها الفقهية مثل: درء الضرر العام قبل الخاص، المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة، إلى غير ذلك.

خ- يجب أن يكون خطابنا كمسلمين موحدا نحو غير المسلمين.

2. يجب أن يحمل الخطاب الإسلامي الجانب الإنساني في طياته لأن أمتنا منوط بها حمل الخيرية لجميع البشرية.

3. يجب أن يحمل الخطاب الإسلامي معاني العدالة والمساواة مثلما قرره صلى الله عليه وسلم في سلوكه مع أصحابه رضوان الله عليهم.

المنارة للاستشارات

4. أن يكون الخطاب الإسلامي متدرجا في الأحكام.

5. اعتماد منهج التيسير ورفع الحرج، وخاصة مع الحديثي عهد بالإسلام.

6. تحسين سلوك الفرد المسلم، لأن الإنسان يدعو بخلقه أكثر من لسانه، والله تعالى يقول: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)[45]

7. ما دمنا الأمة الوسط فيجب أن يبنى خطابنا على الوسط مصداقا لقوله: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)[46]

الهوامش:

[1] سورة الأنبياء، الآية: 107.

2 سورة إبراهيم، الآية: 52.

3 سورة الأنعام، الآية: 38.

4 سورة النحل، الآية: 89.

5 الاتجاه السلفي، حيدر إبراهيم علي،""مجلة عالم الفكر المجلد 26 العددان 3 – 4 يناير 1998 ص:13

6 سورة ص20

7 لسان العرب (خطب)، باب الباء، فصل الخاء، وما يثلثهما.

المنارة للاستشارات

8 بنية الخطاب السردي (مقاربة تداولية)، هواري بن قندوز، مجلة ملتقى علم النص- قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر- العدد 17، جانفي 2006، ص91، 92.

9 معجم علوم اللغة العربية، محمد سليمان عبد الله الأشقر، الرسالة – بيروت – لبنان- ط: 01- 1995، ص209

10 سورة الفاتحة: 04.

11 سورة يوسف: 76.

12 لسان العرب (دين) باب النون، فصل الدال، وما يثلثهما.

13 المفصل في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، جواد علي، جامعة بغداد – العراق – ط: 02- 1993، ج: 06، ص28.

14 الوسطية في الخطاب الديني وأثره على الفرد والمجتمع، بحث نشر في: 04/ 06/ 2013 بموقع: مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي.

15 سورة الحجر، الآية: 09.

16 سورة النجم، الآية: 04.

17 سورة الأحزاب، الآية: 36.

18 الإسلام بين العلم والدين، محمد عبده، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة – مصر - د ت، ص120، 121.

19 سورة التوبة، الآية: 36.

20 سورة المائدة، الآية: 06، وهذه قراءة نافع وابن عامر والكسائي عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب. ينظر: التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس -1984، ج: 6، ص130.

المنارة للاستشارات

21 سورة المائدة: الآية 06. وهذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة، وأبوبكر عن عاصم وخلف. المرجع نفسه، ص130.

22 البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث – القاهرة – مصر – الطبعة الثالثة: 1984، ص163.

23 سورة آل عمران، الآية: 07.

24 سورة البقرة، الآية: 228.

25 أبو النجيب السهروردي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي – بيروت – ط: 01، 1966، ص: 25.

26 رواه البخاري 4119

27 صحيح البخاري: 3036، صحيح مسلم: 2643.

28 الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، فؤاد زكريا، دار الفكر – القاهرة – ط:02 – 1987، ص40.

29 آليات ومنطلقات الخطاب الديني، عبد النور إدريس، منتدى معمري للعلوم، 16–10–2010.

30 سورة سبأ: 46.

31 سورة هود: 118، 119.

32 الصحوة الإسلامية بين الختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق – القاهرة – مصر – 2001 – ط: 01، ص44.

33 سورة طه، الآيات: 25، 26، 27، 28.

34 أخرجه مسلم في المقدمة

المنارة للاستشارات

35 أخرجه البخاري كتاب العلم 124.

36 تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف، كتاب البيان (60) – الرياض– السعودية– ط: 01– 2004، ص28

37 المرجع نفسه، ص28، 29.

38 المرجع نفسه ،ص37.

39 المرجع نفسه، ص28، 29.

40 أخرجه الحاكم في مستدركه 4– 520.

41 أخرجه ابن حبان في صحيحه 2/ 32.

42 منطلقات أساسية لخطاب إسلامي معاصر، عصام البشير، مؤتمر الهدي النبوي في الدعوة والإرشاد – أبو ظبي– الإمارات– 2004، ص6–8.

43 سورة آل عمران، الآية 110.

44 سورة آل عمران، الآية 110.

45 سورة الممتحنة، الآية: 5.

46 سورة البقرة: الآية: 143.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1– الاتجاه السلفي، حيدر إبراهيم علي،«مجلة عالم الفكر المجلد 26 العددان 3– 4 يناير 1998.

2– لسان العرب (خطب).

3– بنية الخطاب السردي (مقاربة تداولية)، هواري بن قندوز، مجلة ملتقى علم النص– قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر– العدد 17، جانفي 2006.

المنارة للاستشارات

4- معجم علوم اللغة العربية، محمد سليمان عبد الله الأشقر، الرسالة –بيروت –لبنان- ط: 01- 1995.

5- المفصل في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام، جواد علي، جامعة بغداد –العراق –ط: 02- 1993.

الوسطية في الخطاب الديني وأثره على الفرد والمجتمع، بحث نشر في: 04/ 06/ 2013 بموقع: مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي.

6- الإسلام بين العلم والدين، محمد عبده، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة –مصر – د ت.

7- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر –تونس -1984.

8- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث –القاهرة –مصر –الطبعة الثالثة: 1984.

9- أبو النجيب السهروردي، عوارف المعارف، دار الكتاب العربي - بيروت- ط: 01، 1966.

10-الإسلامية في ميزان العقل، فؤاد زكريا، دار الفكر- القاهرة- ط:02- 1987.

11-تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف، كتاب البيان (60) – الرياض- السعودية- ط: 01- 2004. آليات ومنطلقات الخطاب الديني، عبد النور إدريس، منتدى معمري للعلوم، 16-10-2010.

12-الصحوة الإسلامية بين الختلاف المشروع والتفرق المذموم، يوسف القرضاوي، دار الشروق –القاهرة –مصر –2001 –ط: 01.

13-تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، محمد بن شاكر الشريف، كتاب البيان (60) – الرياض- السعودية- ط: 01- 2004.

14-مستدرك الحاكم

15-صحيح ابن حبان

16-منطلقات أساسية لخطاب إسلامي معاصر، عصام البشير، مؤتمر الهدي النبوي في الدعوة والإرشاد –أبو ظبي- الإمارات- 2004، ص6-8.

17-صحيح البخاري.

18-صحيح مسلم.

المنارة للاستشارات